بين يدي الكتاب

بقلم: عبد اللطيف الأرناؤوط

- ١ -

بواكير «شفيق جبري» النثرية، مجموعة مقالات ذاتية وموضوعية نشرها بين العشرينات والثلاثينات من هذا القرن في شتى الصحف والمجلات، واعترف له الناس بمكانته الأدبية ناثراً موهوباً، وكاتب مقالة من الطراز الأول في زمانه، يوم كانت الصحافة أدباً خالصاً، ولمّا يكن الصحفي قد استقل عن الأديب بعد، وقد جمع «جبري» فيها مستلزمات الأدب والفن الصحفي معاً.

أما فيما يتعلق بفن الصحافة في مقالاته فقد أحسن «جبري» اختيار مادتها، وأدرك بثاقب نظره واهتماماته الاجتماعية حاجات قرائه الفكرية والاجتماعية في تلك الفترة، فلاقت مقالاته اهتماماً وسيرورة بين الناس، وكانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، لِما كانوا يجدون فيها من عمق فكري، وزاد ثقافي، وبيان ناصع سليم.

أما ما يخص الأدب فيها، فإن شفيق جبري المبدع أجاد في اختيار مقدمات شائقة، ومداخل لطيفة لمقالاته، وأضفى عليها شأن كتّاب المقالة في عصره - كمصطفى صادق الرافعي، وأحمد حسن الزيات، وطه حسين - حُلّة ناصعة من البيان العربي المشرق، والأسلوب الأدبي الذي ساد في زمانه.

وكان يجمع بين الترسل والتزيين البديعي من توازن وترادف مع ولعٍ باختيار المفردات والتراكيب الواضحة، وإن كان يحرص على بعث الحياة في

كثير من ألفاظ العربية وتعابيرها مما ندر استعماله، وغاب عن الاستخدام في حياتنا في بطون المعجمات.

وفي هذا كله لم يخرج جبري في بواكيره النثرية عما كان سائداً في أساليب كتّاب المقالة من معاصريه.

على أن مقالاته تتميز عن أقرانه بما تتضمنه من بعدٍ ثقافي، ومعارف واسعة، واتكاء على العقل بمقدار ما تنبع من الوجدان، واتزان وهدوء في الشخصية، وقدرة على الإقناع تحدّرت إليه من مطالعاته الواسعة في التراث العربي والأدب الفرنسي.

فمن النادر أن تجد له مقالة لا تتضمن شواهد واسعة مقتبسة من مطالعاته الغزيرة، وهو يُحسن اختيارها، ووضع الشاهد في مكانه الملائم من الفكرة نصاً كان أم واقعة تاريخية ،أو اجتماعية حتى يقود قارئه في نهاية المطاف إلى التسليم بوجهة نظره.

ففي مقاله عن عبقرية الوطن يستهله بقول يندد فيه بالمتقعرين الذين يبالغون في إظهار وطنيتهم الزائفة بالكلام دون الفعل، وينتقل بعد ذلك إلى إثبات أن الوطنية الصادقة هي الوطنية الهادئة الساكنة التي تنبع من القلب، ولا أثر فيها لأباطيل البيان، ويقودنا إلى التسليم بأن حب الوطن يلتمس المرء في كل مظهر من مظاهر طبيعته، في ترابه الذي حوى رفات الآباء والأجداد، وفي ذاكرة الأجيال عنهم، وفي ارتباطهم بالأرض، ومعالمها ورسومها، ويستشهد على ذلك بحنين امرئ القيس إلى مرابعه بعد أن غادرها إلى قيصر، وبصور التاريخ الزاهية للماضي المجيد، وآثار حضارة السلف الماثلة، ثم يختم مقاله داعياً قومه إلى حب الوطن، فيقول:

«إذا كانت وطنيتنا ينقصها شيء فإنما ينقصها هذا الطراز حتى يُشربَ قلب كل واحد منا حبَّ تربته الكريمة على شتى ألوانها وأشكالها، وفي مختلف أيامها وعصورها».

ويعود «جبري» في كثير من مقالاته إلى ما كان عالجه في مقالات سابقة، فيغني الفكرة التي طرحها ويوسّعها، من ذلك أنه عالج موضوع حب الوطن في أكثر من مقالة لاحقة، فأظهر دور التربية في تنشئة الجيل على الوطنية الصادقة، وندّد بمناهج الانتداب الفرنسي التي كانت تعلم تاريخ فرنسا وجغرافيتها لأبناء وطنه، متجاهلة خطر طمس التاريخ العربي وجغرافية بلدان العرب، وإهمالهما في المناهج المقررة.

- ٢ -

وإذا تساءلنا عن الرابط الذي نظم هذه المقالات المتفرقة تبين لنا بالرجوع إلى مضامينها أن «جبري» كان يهدف من ورائها إلى غاية واحدة وهي نشر الوعي والإصلاح لدى أبناء وطنه، فإذا كتب في اللغة حبّب إلى الناس معجماتها وحثّهم على إصدارها معزّزة بالصور التوضيحية، أو أبدى اعتزازه بصمود اللغة العربية ومنعتها أمام الغزوات، ورأى في مفردات اللغة «روح الوطن وعبقريته».

وإن تحدّث عن الشعر والشعراء أبرز دور الشعر في الحفاظ على القيم والأخلاق الفاضلة، ورأى في الشاعر «مصلح الطبائع وناشر الفضيلة وطاوي الرذيلة».

وإن مَجَّدَ صبر الشعراء على الشدائد دعا أبناء قومه إلى أن يتعرّفوا رجولتهم في نار الآلام والمكاره.

وإذا تحدّث عن الأسلوب الأدبي دعا الأدباء إلى التجديد والابتكار، لأن الكتابة إنّما هي «أن يكون لك أسلوب خاص بك».

وشفيق جبري كان يؤمن بثبات الأخلاق، فالحضارة والمدنية عجزا عن تهذيب ما في أعماق الإنسان من نزعات طبيعية إلى الشعر والعنف، فإذا اختلفنا عن أجدادنا فإنما نختلف عنهم اختلافاً يسيراً جداً، ولا تتغير عواطفنا وأذواقنا إلا إذا تغيّرت الأعضاء التي نتوالد منها، وهذا لا يتم إلا في قرون».

وإذا كتب عن العلم أبدى حاجة أبناء دمشق إلى مكتبة عصرية تضم نفائس الكتب، ودعاهم إلى السخاء في سبيل العلم للحاق بركب الأمم المعاصرة، وإذا شاهد تماثيل تقام للعظماء والنوابغ في عواصم العالم تمنّى أن يبادر قومه إلى تكريم عظمائهم وفضلائهم يقول:

«أيّ عين لا تدمع، وأي قلب لا يحزن إذا رمى أحدنا بطرفه في بلادنا ولم يجد أثراً لشاعر من شعرائنا، أو كاتب من كتابنا، أو قائد من قوادنا الذين أضاؤوا الظلمات ومهدوا الملك، ووطدوا السلطان».

وإذا تحدث عن الكتابة الصحفية عاب على «أولئك الذين يملأون الصحف بخواطرهم السمجة وهواجسهم الفظة البالية » وحثّ عل الذوق ولطف البيان في الكتابة.

وإذا كتب عن تاريخ العرب دعا قومه إلى اللحاق بالأمم التي بلغت من العلم والحضارة ..وفي ذلك كله ما يثبت أنه كان داعية للإصلاح والنهضة، مطلعاً على أسباب تخلف مجتمعه، حريصاً على تقدمه داعياً الجيل إلى العمل ومحاربة الفراغ والبطالة، مرشداً الموظفين إلى خدمة الشعب .

على أن في بواكير جبري خواطر وتأملات تحدد رؤيته الخاصة للحياة، دون أن نلحظ تعارضاً بينها وبين سلوكه الشخصي كإنسان يعيش بين ظهرانينا.

ففي مقال له عنوانه (لزوجة الحياة) يتحدث عن نسبية الأمور، فلا خير ولا شر، ولا حسن ولا قبيح في الحياة، إن هي إلا أسماء سميناها نحن وآباؤنا من قبل واصطلح البشر على أن يكون هذا الأمر حسناً وذاك قبيحاً «فالعاقل منا من

ينظر إلى الحياة من وجهها الصحيح فيطرح الأوهام التي تقبح كل شيء في النظر ويعيش عيشة هادئة ساكنة».

ويستشهد بقول لأحد الكتاب تمنى فيه لو ينسى كل ما تعلم ويعود إلى حضن الطبيعة ليعيش في نقائها وبساطتها.

وبالفعل فقد طبق «جبري» هذا المبدأ في مراحل لاحقة من حياته، فاعتزل الناس وعاش في أحضان الطبيعة ببلودان وكانت له فلسفة خاصة في حياته ونظرته إلى ما تواضع عليه الناس من مواصفات، دون أن يجد فيما قيد به نفسه غِلاً لأنه كان منسجماً مع ذاته، صادقاً مع خواطره وتأملاته، يفعل ما يقول، ويطبقه على حياته.

ولعل أهم ما دعا إليه جبري في خطته الإصلاحية الأخذ بمبادئ العدالة والمساواة بين فئات المجتمع.

«ولاعجب فإن الأمم لا تزداد تبسّطاً في منازع الحضارة إلا ذهبت آثار التفاضل في الاجتماع والسياسة، واستقرت فيها أصول التساوي والتعادل» بل لعلّ أبرز ما نادى به هو الوحدة الوطنية والتآلف الذي يوحد قلوب المواطنين من الفئات المختلفة «فأرشد وسيلة إلى التقريب بين ما تباعد من القلوب، وصرف العزائم إلى غاية وطنية عامة تجمع بين النصارى والمسلمين على السواء».

لم تكن وطنية جبري محض كلام يكتب، ففي مقالاته الأخيرة وكلمات التأبين، نجده يخرج عن طوره ورصانته المعهودة وأسلوبه التوجيهي الهادئ وقد استفزته ممارسات رجال الانتداب الفرنسي وعملائهم، فيسلقهم بلسان يتفجر غضباً وألماً، وقد هاله أن يسفر هؤلاء الذين عاثوا في بلاده فساداً عن وجوه لاتعرف الحياء، ولا تقيم لحق الشعوب وزناً، ويكفي أن تقرأ كلماته في تأبين الشيخ أحمد قضماني، أو كلمته التي ألقاها في دار السيد هاني الجلاد

في ٢ تشرين الثاني من عام ١٩٣٥ لتقف على مدى جرأته في مناضلة السلطة المنتدبة وأعوانها .

«إن السياسة الأجنبية في هذه البلاد لا تستطيع أن تضع أيديها إلا في أيدي هذه المخلوقات الواطئة، انظروا إلى هذه الرياسات القائمة في البلاد : رياسة عنيفة مفتتة وسخة، مائتة الدماغ، مفلوجة الشعور، مشلولة الحس».

أيها السادة:

صمموا أن لا تكونوا عبيداً تصبحوا أحراراً ...فإذا لم نسند هذا الانتداب بعد اليوم وجدناه شبه تمثال كبير نُزعتْ منه قاعدته التي يعتمد عليها، فهو على الأرض، محطم تحطيماً.

وفي خطبته بمناسبة عيد شهداء السادس من أيار يقول:

«يا رجال الوطن ! إن هذه القبور لا تحتوي على لحم ولا على عظم ولا على دم، إنها تحتوي على شيء أبقى من اللحم والعظم والدم، إنها تحتوي على فكر خالد لا يموت وهو فكر التضحية، هذا فكر دمشق، فكر سورية كلها، هذا الفكر الخالد الذي لا يموت، قد يقتلون أصحابه، أو ينفونهم، أو يسجنونهم، ولكنه يبقى خالداً على وجه الدهر».

- ٣ -

في هذه البواكير التي نشرت منجّمة في عدد من الصحف والمجلات تذهلنا وحدة فكر جبري على الرغم من تباين هذه الصحف والمجلات في اتجاهاتها الفكرية والسياسية، كما يشدنا إليه بهذه الوحدة الفكرية .

وضع «جبري» نفسه فوق انقسامات الفكر والسياسة، وأثرها في تفريق وحدة الصف، وزرع الضعف في جسد المجتمع والوطن ليسمو إلى آفاق من الوطنية تتجاوز المصالح العارضة إلى غاية أسمى هي جمع كلمة الأمة، ومدّها بأسباب القوة والمنعة في ظرف هي أحوج ما تكون إليهما.

وواقع الحال أن هذه المقالات لا يصح أن يطلق عليها مصطلح البواكير، بالمعنى الشائع المتداول، لأن جبري طلع فيها وهو أكثر ما يكون استعداداً للكتابة، وامتلاكاً لأدواتها ومتطلباتها، من حيث غزارة الفكر ومتانة الأسلوب، والنضج الثقافي، فلا نلمح فيها ما نلمحه من تردٍ في أساليب المبتدئين، أو تعثر في ممارستهم المبكرة، بل على نقيض ذلك نشعر أنها تدخل في باب النتاج الرفيع من أدب كتاب المقالة في عصره.

وقد أقبل جبري على الكتابة لهذه الصحف والمجلات وهو فوق الثلاثين من عمره، ولم يبادر إلى النشر المنظم إلاّ بعد أن استحكمت قواه في دنيا البيان والتمس له نهجاً في التعبير، وخطة في العرض ترقى بنتاجه إلى مصاف كتاب المقالة الكبار، فتسمية هذه المقالات بدايات أو البواكير ليس إلا تجوزاً يشير إلى بدايات في العمل الكتابي سعى جبري فيما بعد إلى تطويرها بعد أن انتسب إلى المجمع العلمي ومارس التدريس، وانخرط في عالم البحث والتأليف، فتخفف من ضرورات الصنعة البديعية في كتابته، واقترب فيما كتبه من مقالات لاحقة من الترسُّل الذي يخلو من الصنعة والتماس الغريب من المفردات والتراكيب، وبدا نتاجه في فن المقالة أقرب إلى العلم والموضوعية ومنهجية البحث بعد أن كانت مقالاته قبل ذلك أشبه بالخواطر العابرة، فبدت دراساته المنشورة في مجلة «المجمع» بحوثاً موسّعة لكنها تستند في جوهرها إلى بذور فكره التي نثرها في بواكيره، وظلت شخصيته الأدبية والفكرية واحدة في جوهرها، واهتماماتها ونوازعها، تحكمها قوة عقله، وتصقلها تجارب الحياة المتراكمة، والمخزون الثقافي المتنامي، مثلما تسيّرها الذات الفاعلة المتفاعلة مع الشعور وحرارة الوجدان، وإن بدا جلياً أنه أقام في أدبه بعد ذلك التطور حدوداً واضحة بين شعره ونثره، فاختص شعره بما تقتضيه الصنعة من جمال لغوي وفني وتعبير عن المشاعر، واختص نثره بالفكر وما يقوم عليه من الحجج والبراهين، والأسلوب العلمي والمنهجي، والأدلةّ العقلية.

وبهذه النقلة بدا شفيق جبري مجدداً في أساليب تعبيره النثرية، مسايراً روح عصره في حين أنه ظلَّ محافظاً سلفياً في شعره، ودوافع هذا التباين كثيرة، فقد تميز النثر عن الشعر بحكم ارتباطه بالواقع، وانفصلت لغة الصحافة عن لغة الأدب، وأصبحت ألصق بالحياة والتعبير عنها، كلما فرض التخصص والتطور العلمي تطوراً في أساليب التعبير والكتابة، واقتضى التعليم الذي مارسه جبري في المدرسة العليا ثم الجامعة،اقتضى منه أن يساير الحاجات التربوية إلى بيان جديد سهل وواضح، بعيد عن الصنعة الأدبية، حيث فرض عليه أن يقدم في زمن يسير لطلابه محاضراتٍ متتالية لا يفسح ضغط الوقت وظروف الدراسة أن يتفرغ لمثل هذه الصنعة الأدبية التي بدت في بداياته، فتخفف من الترادف والتوازن في دراساته، وإن ظل شديد الإلحاح على الفكرة التي تناولها في عدة جمل، حرصاً على إيصالها لطلابه وقرائه، مثلما تخفف من استخدام الغريب النادر من مفردات اللغة وتراكيبها، وإن ظل في كتاباته يدعو إلى إحياء العربية وبعثها وإثبات أن لغة العامة فيها من بقايا الفصاح ما يقربها من اللغة الفصيحة، ومن المجاز ما يقرّبها من لغة الشعر.

- ٤ -

كان شفيق جبري يتمتع بصفة الاعتدال، وهي سمة تنبع من توازن شخصيته، وتظهر تلك السمة جلية في بداياته الأدبية، فهو يكره التطرّف، ويرفض التصلّب، ويؤمن بمنطق الحياة التي يجري فيها التطور رخياً هادئاً عبر الزمن، وفي بداياته ينعى على الجامدين جمودهم، والمندفعين إلى كل جديد تهورهم، وهو يؤمن بأن الحياة تتطور شئنا أم أبينا لأن التجديد من نواميس الحياة، لكنه يكره الطفرة التي تتعجّل، أو تخالف نواميس الطبيعة، وهو في ذلك كله واقعي التفكير، يتعلم من الطبيعة ويحترمها، ويبدي عجز الإنسان عن معارضة منطقها.

وتقترن واقعيته بالصدق، فقد خصّ كثيراً من بواكيره لمحاربة النفاق الاجتماعي، ومحاربة الظواهر التي لا تنسجم مع البواطن في حياة الناس، وكان نقده ملفعاً بالتهكم والمرارة، مقترناً بنزعة إنسانية سامية تدافع عن المظلومين والفقراء والعامة، وتفضح الفئات المستغلة فلنسمع إليه كيف يُعرّي هذه الفئة الخطيرة:

«ينافق الإنسان في دينه وعقيدته فيلبس الصوف وقد انحنى ظهره وبدت عظامه لكثرة صلاته وصومه، وما هو بالزاهد، ولا بالناسك، وإنما حبس نفسه عن جرعة ماء، أو مزعة لحم لأمريطلبه في دنياه ... ولكن الداهية الدهواء أن ينافق المرء في حب وطنه فيلبس لبوسَ الذائد عن ربعه، المانع عن جاره فإذا جدّ الجد أورد وطنه موارد لاحدود لها».

وهو يختار من مطالعاته نماذج من سلوك العظماء في الإيثار والبذل والتضحية ليقتدي بها مواطنوه، وهو يندد بالاستغلال ... استغلال الجهد الإنساني فيقول:

«ويستبد أصحاب الصناعات والتجارات بما يجتمع لهم من المكاسب فيستعملون العامة في منافعهم من غير أن يجازوهم بما يستحقون أو يعطفوا عليهم بحسب ما يستوجبون...».

غير أنه كان معتدلاً في دعوته إلى مناصرة الفئات المستغلة، يحثها على أن تتعرف الوسائل التي تتوصل بها إلى مراد أنفسها والدفاع عن حقوقها عن طريق التشريع لا العنف والتفهم البناء بين مختلف الفئات، غير انه يحذر الأغنياء من عواقب احتقارهم للفئات الكادحة، وينبئهم بأسوأ النتائج.

فالاعتدال والواقعية والحرص على سلامة المجتمع من الانقسام والاهتزاز كانت جوهر دعوته في إصلاح مجتمعه وتحسين أوضاعه، يقابل ذلك نظرته إلى التجديد في الأدب والفن والحياة ... فهو يرى أن للتجديد نواميس لا يمكن مخالفتها، وهي نواميس تفعل في ذوق الناس وتطور الأذواق ولن يفرض التجديد

بدعوة مغامرين، وإنما يفرضه ذلك التطور الخفي للحياة الذي يعدّل من قيم الناس ومنازعهم، لأن ناموس الطبيعة أقوى من أن تبدّله دعوات الفكر، فللتجديد مستلزماته الاجتماعية والنفسية التي إن لم تتوافر في مجتمع ما، ومرحلة معينة، بدت تلطعاتنا إلى التغيير ضرباً من العبث.

وبهذه الواقعية المتزنة بدا «جبري» سابقاً لعصره، تثبت الأيام سلامة رؤيته وبُعد نظره.

ومن هذا المنطلق تراه يسفّه أولئك الذين يرون أن تحرم المرأة تعلم القراءة والكتابة بحجة أنهما سبيل إلى معرفة أمور لا يصحّ أن تعرفها، فيقول:

«كيف يجد المرء سبيلاً إلى معرفة ما تنطوي عليه الحياة من الأسرار إذا هو لم يجرب خبيث الأمور وطيبها ويعلم قبيحها وحسنها.

ثم يضيف:

«إني لا أحفظ كلاماً أتم به هذا المقال من كلام لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقد قيل له إن فلاناً لا يعرف الشر، فقال: ذلك أحرى أن يقع فيه». وهو يرى أن روح طالبات هذ العصر المصقولة تذهب توّاً إلى المطالعات اللائقة... أعنى إلى المطالعات التي تناسب الذهن والحسّ.

وهو يعوّل على الرادع الداخلي الذي يحكم سلوك الناشئة أو ما نسميه شخصيتها المنيعة التي تعصمها من السقوط.

في بواكير شفيق جبري زاد وفير، وحكمة نحن أحوج ما يكون إليها في عصرنا العاصف، وإن طباعتها وإخراجها للناس خدمة للأدب والمجتمع وإنصاف لهذه العبقرية الفذة التي لم ننصفها، فلنبادر إلى إحياء ما أعطت قبل أن يعفي عليه النسيان.

دمشق في ١٩٩٨/٩/٧